

٢٩ - سورة العنكبوت

مكية وآياتها تسع وستون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِينَ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَقَدْ فُتِنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة، وقوله تعالى: ﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون﴾^(١) استفهام إنكار، ومعناه أن الله سبحانه وتعالى لا بد أن يبتلي عباده المؤمنين، بحسب ما عندهم من الإيمان، كما جاء في الحديث الصحيح: «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمتل فالأمتل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد له في البلاء» وهذه الآية كقوله: ﴿أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾، وقال في البقرة: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب﴾، ولهذا قال ههنا: ﴿ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾ أي الذين صدقوا في دعوى الإيمان، ممن هو كاذب في قوله ودعواه، والله سبحانه وتعالى يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون. وهذا مجمع عليه عند أئمة السنة والجماعة، وبهذا يقول ابن عباس وغيره في مثل قوله: ﴿إلا لنعلم﴾ إلا لنرى، وذلك لأن الرؤية إنما تتعلق بالموجود والغلم أعم من الرؤية فإنه يتعلق بالمعدوم والموجود، وقوله تعالى: ﴿أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون﴾ أي لا يحسن الذين لم يدخلوا في الإيمان أنهم يتخلصون من هذه الفتنة والامتحان، فإن من ورائهم من العقوبة والنكال ما هو أغلظ من هذا وأطم، ولهذا قال: ﴿أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا﴾ أي يفوتونا ﴿ساء ما يحكمون﴾ أي ينس ما يظنون.

﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرًا لَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾

يقول تعالى: ﴿من كان يرجو لقاء الله﴾ أي في الدار الآخرة وعمل الصالحات، ورجا ما عند الله من الثواب الجزيل، فإن سيحقق له رجاؤه، ويوفيه عمله كاملاً موفراً، فإن ذلك كائن لا محالة لأنه سميع الدعاء، بصير بكل الكائنات. ولهذا قال تعالى: ﴿من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم﴾، وقوله تعالى: ﴿ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه﴾، كقوله تعالى: ﴿من عمل صالحاً فلنفسه﴾ أي من عمل صالحاً فإنما يعود نفع عمله على نفسه، فإن الله تعالى غني عن العباد ولو كانوا كلهم على أتقى قلب رجل منهم، ولهذا قال تعالى: ﴿إن الله لغني عن العالمين﴾. قال الحسن البصري: إن الرجل ليجاهد وما ضرب

(١) أخرج ابن أبي حاتم: أن ﴿آلم أحسب...﴾ نزلت في أناس كانوا بمكة أقروا بالإسلام، فكتب إليهم أصحاب الرسول عليه السلام بالمدينة أن لا يقبل منهم حتى يهاجروا، فخرجوا إلى المدينة فردهم المشركون، وأخرج ابن سعد: أنها نزلت في عمار بن ياسر إذ كان يعذب في الله، كما في «اللباب».

يوماً من الدهر بسيف، ثم أخبر تعالى أنه مع غناه عن الخلائق جميعهم، ومع بره وإحسانه بهم، يجازي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أحسن الجزاء، وهو أنه يكفر عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون، فيقبل القليل من الحسنات ويثب عليها الواحدة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ويجزي على السيئة بمثلها أو يعفو ويصفح، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، وقال ههنا: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَتَشْكُرُ لِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٩﴾﴾.

يقول تعالى أمرأ عباده بالإحسان إلى الوالدين، بعد الحث على التمسك بتوحيده، فإن الوالدين هما سبب وجود الإنسان، ولهما عليه غاية الإحسان، فالوالد بالإنفاق والوالدة بالإسفاق، ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبِّي أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، ومع هذه الوصية بالرأفة والرحمة والإحسان إليهما في مقابلة إحسانهما المتقدم، قال: ﴿وإن جاهدك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما﴾ أي وإن حرصاً أن تتابعهما على دينهما إذا كانا مشركين، فلا تطعهما في ذلك فإن مرجعكم إلى يوم القيامة، فأجزيك بإحسانك إليهما وصبرك على دينك، وأحشرك مع الصالحين لا في زمرة والديك، ولهذا قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾. عن مصعب بن سعد يحدث عن أبيه سعد قال: نزلت في أربع آيات فذكر قصته، وقال: قالت أم سعد: أليس الله قد أمرك بالبر؟ والله لا أطعم طعاماً ولا أشرب شرباً حتى أموت أو تكفر، قال: فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا^(١) فاهأ، فنزلت: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾^(٢) الآية.

﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِنَّا نَكُونُ مِنْ مُنْكَرِينَ ﴿١٠﴾ وَإِن يَدْعُنَّ إِلَىٰ طُغْيَانٍ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿١١﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن صفات المكذبين، الذين يدعون الإيمان بألسنتهم ولم يثبت الإيمان في قلوبهم، بأنهم إذا جاءتهم محنة وفتنة في الدنيا، اعتقدوا أن هذا من نعمة الله تعالى بهم فارتدوا عن الإسلام، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةً لِلنَّاسِ كَذَّابٌ إِلَهُهُ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن صفات المكذبين، الذين يدعون الإيمان بألسنتهم ولم يثبت الإيمان في قلوبهم، بأنهم إذا جاءتهم محنة وفتنة في الدنيا، اعتقدوا أن هذا من نعمة الله تعالى بهم فارتدوا عن الإسلام، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةً لِلنَّاسِ كَذَّابٌ إِلَهُهُ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن صفات المكذبين، الذين يدعون الإيمان بألسنتهم ولم يثبت الإيمان في قلوبهم، بأنهم إذا جاءتهم محنة وفتنة في الدنيا، اعتقدوا أن هذا من نعمة الله تعالى بهم فارتدوا عن الإسلام، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةً لِلنَّاسِ كَذَّابٌ إِلَهُهُ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾﴾.

(١) فتحوا فمها بعدد.

(٢) أخرجه الترمذي في باب التفسير في قصة (سعد بن أبي وقاص) مع أمه، ورواه أيضاً مسلم والإمام أحمد وأبو

داود والنسائي.

يطيع الله في الضراء والسراء، ومن يطيعه في حظ نفسه، كما قال تعالى: ﴿وَلْيَبْلُوكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُو أَخْبَارَكُمْ﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ وَمَا كُنَّا بِمُحْسِنِينَ مِنْ خَلْقِكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَقُولَ لَكُذِّبُوا ۗ وَلْيَحْمِلْ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْئَلَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (١٣).

يقول تعالى مخبراً عن كفار قريش أنهم قالوا لمن آمن منهم واتبع الهدى: ارجعوا عن دينكم إلى ديننا واتبعوا سبيلنا ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾ أي آثامكم إن كانت لكم آثام، كما يقول القائل: افعل هذا وخطيئتك في رقبتي، قال الله تعالى تكذيباً لهم: ﴿وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي فيما قالوه إنهم يحتملون عن أولئك خطاياهم، فإنه لا يحمل أحد وزر أحد، قال الله تعالى: ﴿وَأَنْ تَدْعَ مَثَلًا إِلَى حِمْلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا بِبُصْرَتِهِمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلِيَحْمِلَنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ إخبار عن الدعاة إلى الكفر والضلالة، أنهم يحملون يوم القيامة أوزار أنفسهم وأوزاراً آخر، بسبب ما أضلوا من الناس من غير أن ينقص من أوزار أولئك شيئاً، كما قال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ الآية، وفي الصحيح: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من آثامهم شيئاً»، وفي الصحيح: «ما قتلت نفس ظملاً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سن القتل». وقوله تعالى: ﴿وَلَيَسْئَلَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي يكذبون ويختلفون من البهتان.

وفي الحديث: «إياكم والظلم فإن الله يعزم يوم القيامة فيقول: وعزتي وجلالي لا يجوزني اليوم ظلم ثم ينادي مناد فيقول: أين فلان ابن فلان؟ فيأتي يتبعه من الحسنات أمثال الجبال، فيشخص الناس أبصارهم، حتى يقوم بين يدي الرحمن عز وجل، ثم يأمر المنادي، فينادي من كانت له تباعة أو ظلامة عند فلان ابن فلان فهلم، فيقبلون حتى يجتمعوا قياماً بين يدي الرحمن، فيقول الرحمن: اقضوا عن عبدي، فيقولون: كيف نقضي عنه؟ فيقول: خذوا لهم من حسناته فلا يزالون يأخذون منها حتى لا يبقى منها حسنة، وقد بقي من أصحاب الظلمات، فيقول: اقضوا عن عبدي، فيقولون: لم يبق له حسنة. فيقول: خذوا من سيئاتهم فاحملوها عليه» ثم نزع ﷺ بهذه الآية الكريمة: ﴿وَلِيَحْمِلَنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْئَلَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (١٣) وهذا الحديث له شاهد في الصحيح من غير هذا الوجه: «إن الرجل ليأتي يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال، وقد ظلم هذا وأخذ مال هذا، وأخذ من عرض هذا، فيأخذ هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإذا لم يبق له حسنة أخذ من سيئاتهم فطرح عليه».

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (١٤) فَأَجْبَنَهُ وَأَصْحَابُ السُّيُوفِ وَجَمَلَتْهُمَا آيَةٌ لِلْعَالَمِينَ (١٥).

هذه تسلية من الله تعالى لعبده ورسوله ﷺ، يخبره عن نوح عليه السلام أنه مكث في قومه هذه المدة، يدعوهم إلى الله تعالى ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً، ومع هذا ما زادهم ذلك إلا فراراً، وما آمن معه منهم إلا قليل، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ أي بعد هذه المدة الطويلة ما نجح فيهم البلاغ والإنذار، فأنت يا محمد لا تأسف على من كفر بك من قومك ولا تحزن عليهم، فإن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء، ويبيد الأمر وإليه ترجع الأمور واعلم أن الله سيظهرك وينصرك ويؤيدك، ويذل عدوك ويكبتهم ويجعلهم أسفل السافلين. عن ابن عباس قال: بعث نوح وهو

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي أمامة مرفوعاً.

لأربعين سنة ولبت في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً وعاش بعد الطوفان ستين عاماً حتى كثر الناس وفشوا، وقوله تعالى: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ﴾ أي الذين آمنوا بنوح عليه السلام، وقد تقدم تفسيره بما أغنى عن إعادته، وقوله تعالى: ﴿وجعلناها آية للعالمين﴾ أي وجعلنا تلك السفينة باقية؛ إما عينها - كما قال قتادة - إنها بقيت إلى أول الإسلام على جبل الجودي، أو نوعها جعله للناس تذكراً لنعمه على الخلق كيف أنجاهم من الطوفان، كما قال تعالى: ﴿وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون﴾ وقال تعالى: ﴿إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية * لنجعلها لكم تذكراً وتعيها أذن واعية﴾، وقال ههنا: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وجعلناها آية للعالمين﴾.

﴿وَإِذْ هَبَسَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ إِنَّمَا تَسْبُحُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّكَ الَّذِينَ تَسْبُحُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٢﴾ وَإِنْ تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبْتُمْ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿١٣﴾﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله وخليله (إبراهيم) إمام الحنفاء، أنه دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والإخلاص له في التقوى، وطلب الرزق منه وحده لا شريك له، وتوحيده في الشكر فإنه المشكور على النعم لا مُسْئِدِي لها غيره، فقال لقومه: ﴿اعبدوا الله واتقوه﴾ أي اخلصوا له العبادة والخوف ﴿ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ أي إذا فعلتم ذلك حصل لكم الخير في الدنيا والآخرة، ثم أخبر تعالى أن الأصنام التي يعبدونها لا تضر ولا تنفع، وإنما هي مخلوقة مثلكم، قال ابن عباس: ﴿توتخلقون إفكاً﴾ أي تنحتونها أصناماً^(١)، وهي لا تملك لكم رزقاً ﴿فابتغوا عند الله الرزق﴾، وهذا أبلغ في الحصر كقوله: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ ولهذا قال: ﴿فابتغوا﴾ أي فاطلبوا ﴿عند الله الرزق﴾ أي لا عند غيره فإن غيره لا يملك شيئاً، ﴿واعبدوه واشكروا له﴾ أي كلوا من رزقه واعبدوه وحده واشكروا له على ما أنعم به عليكم، ﴿إليه ترجعون﴾ أي يوم القيامة فيجازي كل عامل بعمله. وقوله تعالى: ﴿وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم﴾ أي فبلغكم ما حل بهم من العذاب والنكال في مخالفة الرسل، ﴿وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾ يعني إنما على الرسول أن يبلغكم ما أمره الله تعالى به من الرسالة، والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء، فاحرصوا لأنفسكم أن تكونوا من السعداء، وقال قتادة في قوله: ﴿وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم﴾، قال: يعزي نبيه ﷺ، والظاهر من السياق أن كل هذا من كلام إبراهيم الخليل عليه السلام، يحتاج عليهم لإثبات المعاد لقوله بعد هذا كله ﴿فما كان جواب قومه﴾ والله أعلم.

﴿أولم يروا كيف بيده الله الخلق ثم يُعيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٤﴾ قُلْ يَسِيرًا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٥﴾ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا أَنْشَأْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَكِيدُونَ لِلَّهِ وَاللَّهُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٨﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن الخليل عليه السلام، أنه أرشدهم إلى إثبات المعاد الذي ينكرونه، بما يشاهدونه في أنفسهم من خلق الله إياهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً، ثم وجدوا وصاروا أناساً سامعين مبصرين، فالذي بدأ هذا قادر على إعادته، فإنه سهل عليه يسير لديه؛ ثم أرشدهم إلى الاعتبار بما في الآفاق من الآيات المشاهدة من خلق الله الأشياء: السماوات وما فيها من الكواكب النيرة، والأرضين وما فيها من مهاد وجبال، وأودية وبراري وقفار، وأشجار وأنهار، وثمار وبحار، كل ذلك دال على حدوثها في أنفسها، وعلى وجود صانعها الفاعل المختار، الذي يقول للشيء كن فيكون، ولهذا قال: ﴿أولم يروا كيف بيده الله الخلق ثم

(١) وبه قال مجاهد وعكرمة والحسن وقاتادة واختاره ابن جرير وهو الأظهر.

يعيده إن ذلك على الله يسير»، كقوله تعالى: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾، ثم قال تعالى: ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة﴾ أي يوم القيامة، ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾، وهذا المقام شبيه بقوله تعالى: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾، وكقوله تعالى: ﴿أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون * أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون﴾، وقوله تعالى: ﴿يعذب من يشاء ويرحم من يشاء﴾ أي هو الحاكم المتصرف الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، فله الخلق والأمر لأنه المالك الذي لا يظلم مثقال ذرة، كما جاء في الحديث: ﴿إن الله لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم^(١١)﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون﴾ أي ترجعون يوم القيامة، وقوله تعالى: ﴿وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء﴾ أي لا يعجزه أحد من أهل سماواته وأرضه، بل هو القاهر فوق عباده، فكل شيء خائف منه فقير إليه وهو الغني عما سواه ﴿وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير * والذين كفروا بآيات الله ولقائه﴾ أي جحدوها وكفروا بالمعاد، ﴿أولئك يشوسوا من رحمتي﴾ أي لا نصيب لهم فيها، ﴿وأولئك لهم عذاب أليم﴾ أي موجه شديد في الدنيا والآخرة.

﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَفَتُلْهَوْنَ أَوْ حُرِّقُونَ فَأَجْعَلَنَّ اللَّهُ مِنْ النَّارِ لِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاهُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن قوم إبراهيم في كفرهم وعنادهم ومكابرتهم، ودفعمهم الحق بالباطل، أنهم ما كان لهم جواب بعد مقالة إبراهيم هذه المشتملة على الهدى والبيان ﴿إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه﴾، وذلك لأنهم قام عليهم البرهان وتوجهت عليهم الحجة، فعدلوا إلى استعمال جاههم وقوة ملكهم، ﴿فقالوا ابنوا له بيتاً فألقوه في الجحيم﴾ وذلك أنهم حشدوا في جمع أحطاب عظيمة مدة طويلة، ثم أضرموا فيها النار، ثم عمدوا إلى إبراهيم فكتفوه والقوه في كفة المنجنيق، ثم قذفوه فيها فجعلها الله عليه برداً وسلاماً، وخرج منها سالماً بعدما مكث فيها أياماً، ولهذا وأمثاله جعله الله للناس إماماً، فإنه بذل نفسه للرحمن، وجسده للنيران، ولهذا اجتمع على محبته جميع أهل الأديان، وقوله تعالى: ﴿فأنجاه الله من النار﴾ أي سلمه منها بأن جعلها عليه برداً وسلاماً، ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون * وقال إنما اتخذتم من دون الله آوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا﴾، يقول لقومه مفرعاً لهم وموبخاً على سوء صنيعهم في عبادتهم للأوثان: إنما اتخذتم هذه لتجتمعوا على عبادتها في الدنيا صداقة وألفة منكم ﴿ثم يوم القيامة﴾ ينعكس هذا الحال فتبقى هذه الصداقة والمودة بغضاً وشناتاً، ثم ﴿يكفر بعضهم ببعض﴾ أي تتجاهدون ما كان بينكم، ﴿ويلعن بعضهم بعضاً﴾ أي يلعن الأتباع المتبوعين، والمتبوعون الأتباع، ﴿كلما دخلت أمة لعنت أختها﴾، وقال تعالى: ﴿الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين﴾، وقال ههنا: ﴿ثم يوم القيامة يكفر بعضهم ببعض ويلعن بعضهم بعضاً ومأواك النار﴾ الآية، أي ومصيركم ومرجعكم بعد عرصات القيامة إلى النار، وما لكم من ناصر ينصركم، ولا متخذ يتخذكم من عذاب الله.

﴿فَأَمَّا لَوْمَةُ لُقُوطٍ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٠﴾ وَوَعَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَمَا تَنبَأُ أَجْرُهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَإِنَّ الصَّالِحِينَ ﴿٣١﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم أنه آمن له (لوط) يقال: إنه ابن أخي إبراهيم، وهو لوط بن هاران بن أزر، وهاجر معه إلى بلاد الشام، ثم أرسل في حياة الخليل إلى أهل سدوم وإقليمها، وكان من أمرهم ما تقدم

وما سيأتي، وقوله تعالى: ﴿وقال إني مهاجر إلى ربي﴾ يحتمل عود الضمير في قوله: ﴿وقال﴾ على (لوط) لأنه هو أقرب المذكورين، ويحتمل عوده إلى (إبراهيم) وهو المكنى عنه بقوله: ﴿فأمن له لوط﴾ أي من قومه، ثم أخبر عنه بأنه اختار المهاجرة من بين أظهرهم، ابتغاء إظهار الدين والتمكن من ذلك، ولهذا قال: ﴿إنه هو العزيز الحكيم﴾ أي له العزة ولرسوله وللمؤمنين به ﴿الحكيم﴾ في أقواله وأفعاله، وقال قتادة: هاجرا جميعاً من كوثى وهي من سواد الكوفة إلى الشام، روى الإمام أحمد عن قتادة عن شهر بن حوشب قال: لما جاءتنا بيعة (يزيد بن معاوية) قدمت الشام، فأخبرت بمقام يقومه (نوف البكالي) فجنثته إذ جاء رجل، فانتبذ الناس وعليه خميصة، فإذا هو عبد الله بن عمرو بن العاص، فلما رآه نوف أمسك عن الحديث، فقال عبد الله: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿إنها ستكون هجرة بعد هجرة فينحاز الناس إلى مهاجر إبراهيم لا يبقى في الأرض إلا شرار أهلها، فلفظهم أرضهم تقدرهم نفس الرحمن، تحشرهم النار مع القردة والخنازير، فتبيت معهم إذا باتوا وتقبل معهم إذا قالوا، وتأكل من تخلف منهم﴾. قال: وسمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿سيخرج أناس من أمي من قبل المشرق، يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم، كلما خرج منهم قرن قطع، كلما خرج قرن قطع - حتى عدها زيادة على عشرين مرة - حتى يخرج الدجال في بقيتهم﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب﴾، كقوله: ﴿فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلاً جعلنا نبياً﴾ أي لما فارق قومه أقر الله عينه بوجود ولد صالح نبي، وولد له ولد صالح نبي في حياة جده، وكذلك قال تعالى: ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة﴾ أي زيادة، كما قال تعالى: ﴿فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ أي يولد لهذا الولد ولد في حياتكما تقر به أعينكما، فأما ما روي عن ابن عباس في قوله: ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب﴾ قال: هما ولدا إبراهيم، فمعناه أن ولد الولد بمنزلة الولد، فإن هذا الأمر لا يكاد يخفى على من هو دون ابن عباس، وقوله تعالى: ﴿ووجعلنا في ذريته النبوة والكتاب﴾ هذه خلعة سنية عظيمة مع اتخاذ الله إياه خليلاً وجعله للناس إماماً أن جعل في ذريته النبوة والكتاب، فلم يوجد نبي بعد إبراهيم عليه السلام إلا وهو من سلته، فجميع أنبياء بني إسرائيل من سلالة (يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم) حتى كان آخرهم عيسى ابن مريم، فقام مبشراً بالنبى العربي سيد ولد آدم في الدنيا والآخرة، الذي اصطفاه الله من صميم العرب العرباء، من سلالة (إسماعيل بن إبراهيم) عليهما السلام، ولم يوجد نبي من سلالة إسماعيل سواه عليه أفضل الصلاة والسلام، وقوله: ﴿وآتيناها أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ أي جمع الله له بين سعادة الدنيا الموصولة بسعادة الآخرة، فكان له في الدنيا الرزق الواسع الهني والمنزل الرحب، والموارد العذب، والزوجة الحسنة الصالحة، والثناء الجميل، والذكر الحسن وكل أحد يحبه ويتولاه، كما قال ابن عباس ومجاهد وقاتادة وغيرهم مع القيام بطاعة الله من جميع الوجوه، كما قال تعالى: ﴿وإبراهيم الذي وفى﴾ أي قام بجميع ما أمر به وكمل طاعة ربه، ولهذا قال تعالى: ﴿وآتيناها أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾، وكما قال تعالى: ﴿إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين﴾ إلى قوله: ﴿وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾.

﴿وَلَوْ كُنَّا إِذْ قَالُوا لَقَوْمِهِمْ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفِتْنَةَ مَا سَبَّحْتُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْمَلَكِوتِ ۗ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ آتِيَاءَ رَبِّكُمْ فَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ ۗ وَتَأْتُونَ فِي كَادِكُمْ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ ۗ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَنْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ۗ﴾ قَالَ رَبِّي أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٢٥﴾.

يقول تعالى مخبراً عن نبيه (لوط) عليه السلام أنه أنكروا على قومه سوء صنيعهم، وما كانوا يفعلونه من قبيح الأعمال، في اتباعهم الذكران من العالمين، ولم يسبقهم إلى هذه الفعلة أحد من بني آدم قبلهم، وكانوا

(١) أخرجه الإمام أحمد، ورواه أبو داود في «سننه» في كتاب الجهاد.

مع هذا يكفرون بالله ويكذبون رسوله ويخالفونه ويقطعون السبيل، أي يقفون في طريق الناس يقتلونهم ويأخذون أموالهم، ﴿وتأتون في ناديكم المنكر﴾ أي يفعلون ما لا يليق من الأقوال والأفعال في مجالسهم التي يجتمعون فيها، لا ينكر بعضهم على بعض شيئاً من ذلك، فمن قائل: كانوا يأتون بعضهم بعضاً في الملا قاله مجاهد، ومن قائل: كانوا يتضارطون ويتضاحكون، روى الإمام أحمد عن أم هانئ قالت: سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وتأتون في ناديكم المنكر﴾ قال: «يحذفون أهل الطريق ويسخرون منهم وذلك المنكر الذي كانوا يأتونه»^(١). وعن مجاهد ﴿وتأتون في ناديكم المنكر﴾ قال: الصفير ولعب الحمام وحل أزرار القباء، وقوله تعالى: ﴿فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين﴾ وهذا من كفرهم واستهزائهم وعنادهم، ولهذا استنصر عليهم نبي الله فقال: ﴿رب انصرني على القوم المفسدين﴾.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَكْرَمُ مِنْ فِيهَا فَتَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِذْ أَمْرُهُمْ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٢٧﴾ وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا مِنْ رَبِّهِمْ وَمِثْلَ بَعْضِ قَوْمِهِمْ قَالُوا لَا تُخَفِّفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجِيكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرَانِكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٢٨﴾ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيْنَهُمْ فَلَقَوْمٌ يُعْتَلُونَ ﴿٣٠﴾﴾

لما استنصر (لوط) عليه السلام بالله عز وجل عليهم بعث الله لنصرته ملائكة، فمروا على (إبراهيم) عليه السلام في هيئة أضياف، فجاءهم بما ينبغي للضيف، فلما رأى إبراهيم أنه لا همة لهم إلى الطعام نكرهم، وأوجس منهم خيفة، فشرعوا يؤانسونه ويبشرونه بوجود ولد صالح من امرأته سارة، وكانت حاضرة فتعجبت من ذلك، كما تقدم بيانه في سورة هود والحجر، فلما جاءت إبراهيم بالبشرى وأخبروه بأنهم أرسلوا لهلاك قوم لوط أخذ يدافع لعلمهم ينظرون؛ لعل الله أن يهديهم، ولما قالوا إنا مهلكو أهل هذه القرية ﴿قال إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين﴾ أي من الهالكين لأنها كانت تماثلهم على كفرهم وبغيهم، ثم ساروا من عنده فدخلوا على (لوط) في صورة شبان حسان، فلما رآهم كذلك ﴿سيء بهم وضاق بهم ذرعاً﴾ أي اغتم بأمرهم إن هو أضافهم خاف عليهم من قومه، وإن لم يصفهم خشي عليهم منهم، ولم يعلم بأمرهم إلا في الساعة الراهنة ﴿قالوا لا تخف ولا تحزن إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين﴾ إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون، وذلك أن جبريل عليه السلام اقتلع قراهم من قرار الأرض ثم رفعها إلى عنان السماء ثم قلبها عليهم، وأرسل الله عليهم حجارة من سجيل منضود، وجعل الله مكانها بحيرة خبيثة منتنة، وجعلهم عبدة إلى يوم التناد، وهم من أشد الناس عذاباً يوم المعاد، ولهذا قال تعالى: ﴿ولقد تركنا منها آية بينهم﴾ أي واضحة ﴿لقوم يعقلون﴾، كما قال تعالى: ﴿وانكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون﴾؟

﴿وَالَّذِينَ مَدِينَهُمْ أَنهَاءَهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَنْقُورُوا عَبِدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣١﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جثيين ﴿٣٢﴾﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله (شعيب) عليه السلام أنه أئذر قومه أهل مدين فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، وأن يخافوا بأس الله ونقمته وسطوته يوم القيامة، فقال: ﴿يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر﴾ قال ابن جرير: معناه واخشوا اليوم الآخر، كقوله تعالى: ﴿لمن كان يرجو الله واليوم الآخر﴾، وقوله: ﴿ولا تعتوا في الأرض مفسدين﴾ نهاهم عن العيث في الأرض بالفساد، وهو السعي فيها والبغي على أهلها، وذلك

(١) أخرجه أحمد ورواه الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم.

أنهم كانوا ينقصون المكيال والميزان، ويقطعون الطريق على الناس، هذا مع كفرهم بالله ورسوله، فأهلكهم الله برجفة عظيمة زلزلت عليهم بلادهم، وصبيحة أخرجت القلوب من حناجرها، وعذاب يوم الظلة الذي أزحق الأرواح من مستقرها إنه كان عذاب يوم عظيم، وقد تقدمت قصتهم مبسوطه في سورة الأعراف وهود والشعراء، وقوله: ﴿فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾ قال قتادة: ميتين، وقال غيره: قد ألقى بعضهم على بعض.

﴿وَصَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ يُنَبِّئُكُمْ لَكُمْ مِنْ مَسْجِدِهِمْ وَرَزَقَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَعْصِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُرُورٍ وَقِرْقَرٍ وَهَمْرٍ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَلَتَنَكَبُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَافِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ فَنُفِثْنَا مِنْ أَرْضِنَا عَلَىٰ حَاسِبٍ وَمِنْهُم مَن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّن خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّن أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

يخبر تعالى عن هؤلاء الأمم المكذبة للرسول كيف أبادهم وتنوع في عذابهم؛ وأخذهم بالانتقام منهم، فعاد قوم هود عليه السلام كانوا يسكنون (الأحقاف) وهي قرية من حضرموت بلاد اليمن، وثمود قوم صالح كانوا يسكنون (الحجر) قريباً من وادي القرى، وكانت العرب تعرف مساكنهما جيداً وتمر عليها كثيراً، وقارون صاحب الأموال الجزيلة والكنوز الثقيلة، وفرعون ووزيره (هامان) القبطيان الكافران بالله تعالى وبرسوله ﷺ ﴿فكلاً أخذنا بذنبه﴾ أي كانت عقوبته بما يناسبه ﴿فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً﴾ وهم عاد، وذلك أنهم قالوا من أشد منا قوة؟ فجاءتهم ريح صرصر باردة شديدة البرد، عاتيه شديدة الهبوب، تحمل عليهم حصباء الأرض فتلقياها عليهم، وتقتلعهم من الأرض، وترفع الرجل منهم من الأرض إلى عنان السماء، ثم تنكسه على أم رأسه فتشده فيبقى بدنأ بلا رأس كأنهم أعجاز نخل منقعر، ﴿ومنهم من أخذته الصيحة﴾ وهم ثمود قامت عليهم الحجة وظهرت لهم الدلالة على تلك الناقة التي انفلقت عنها الصخرة مثل ما سألوا سواء بسواء، ومع هذا ما آمنوا بل استمروا على طغيانهم وكفرهم وتهذبوا نبي الله صالحاً ومن آمن معه، وتوعدوهم بأن يخرجوهم ويرجموهم فجاءتهم صيحة أخدمت الأصوات منهم والحركات، ﴿ومنهم من خسفنا به الأرض﴾ وهو قارون الذي طغى وبغى وعتا وعصى الرب الأعلى، ومشى في الأرض مرحاً واعتقد أنه أفضل من غيره، واختال في مشيته، فخسف الله به وبداره الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة، ﴿ومنهم من أغرقنا﴾ وهو فرعون ووزيره هامان وجنودهما عن آخرهم أغرقوا في صيحة واحدة فلم ينج منهم مخبر، ﴿وما كان الله ليضلمهم﴾ أي فيما فعل بهم، ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ أي إنما فعل ذلك بهم جزاء وفاقاً بما كسبت أيديهم.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بِئْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِنَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله، يرجون نصرهم ووزقهم ويتسكنون بهم في الشدائد، فهم في ذلك كبيت العنكبوت في ضعفه ووهنه، فليس في أيدي هؤلاء من آلهتهم إلا كمن يتمسك ببيت العنكبوت، فإنه لا يجدي عنه شيئاً، فلو علموا هذا الحال لما اتخذوا من دون الله أولياء، وهذا بخلاف المسلم المؤمن قلبه لله، وهو مع ذلك يحسن العمل في اتباع الشرع، لأنه متمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها لقوتها وثباتها، ثم قال تعالى متوعداً لمن عبد غيره وأشرك به: إنه تعالى يعلم ما هم عليه من الأعمال ويعلم ما يشركون به من الأنداد وسيجزئهم وصفهم إنه حكيم عليهم، ثم قال تعالى: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾ أي وما يفهمها ويتدبرها إلا الراسخون في العلم المتصلعون منه. عن عمرو بن مرة قال: ما مررت بآية من كتاب الله لا أعرفها إلا أحزنني لأنني سمعت الله تعالى يقول: ﴿وتلك

الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون»^(١)

﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٤٤) **أَتَىٰ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَمْرٌ**
الْمَكْرُوهٌ إِنَّكَ الْعَاكِفُ فِيهِ الْفَحْشَاءُ وَالْمُنْكَرُ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن قدرته العظيمة أنه خلق السماوات والأرض بالحق، يعني لا على وجه العيب واللعب «لتجزى كل نفس بما تسعى»، «ليجزى الدين أساءوا بما عملوا ويجزي الدين أحسنوا بالحسنى»، وقوله تعالى: «إن في ذلك لآية للمؤمنين» أي لدلالة واضحة على أنه تعالى المتفرد بالخلق والتدبير والإلهية، ثم قال تعالى أمراً رسوله والمؤمنين بتلاوة القرآن وهو قراءته وإبلاغه للناس، «وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر» يعني أن الصلاة تشتمل على شيئين على ترك الفواحش والمنكرات، أي مواظبتها تحمل على ترك ذلك، وقد جاء في الحديث عن ابن عباس مرفوعاً: «من لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم تزده من الله إلا بعداً».

(ذكر الآثار الواردة في ذلك)

روى ابن أبي حاتم عن عمران بن حصين قال: سئل النبي ﷺ عن قول الله ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ قال: «من لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له»، وعن ابن عباس، قال رسول الله ﷺ: «من لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزد بها من الله إلا بعداً»^(٢). وروى الحافظ أبو بكر البزار قال: قال رجل للنبي ﷺ: إن فلاناً يصلي بالليل فإذا أصبح سرق، قال: «إنه سينهأ ما تقول»^(٣)، وتشتمل الصلاة أيضاً على ذكر الله تعالى وهو المطلوب الأكبر، ولهذا قال تعالى: ﴿ولذكر الله أكبر﴾ أي أعظم من الأول «والله يعلم ما تصنعون» أي يعلم جميع أعمالكم وأقوالكم، وقال أبو العالية: إن الصلاة فيها ثلاث خصال، فكل صلاة لا يكون فيها شيء من هذه الخلال فليست بصلاة: الإخلاص، والخشية، وذكر الله، فالإخلاص يأمره بالمعروف، والخشية تنهأ عن المنكر، وذكر الله (القرآن) يأمره وينهأه، وقال ابن عون الأنصاري: إذا كنت في صلاة فأنت في معروف وقد حجزتك عن الفحشاء والمنكر والذي أنت فيه من ذكر الله أكبر، وعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ولذكر الله أكبر﴾ يقول: ولذكر الله لعباده أكبر إذا ذكره من ذكرهم إياه^(٤). وعنه أيضاً قال: لها وجهان: ذكر الله عندما حرمه، قال: وذكر الله إياكم أعظم من ذكركم إياه، وعن عبد الله بن ربيعة قال: قال لي ابن عباس: هل تدري ما قوله تعالى: ﴿ولذكر الله أكبر﴾؟ قال، قلت: نعم، قال: فما هو؟ قلت: التسبيح والتحميد والتكبير في الصلاة وقراءة القرآن ونحو ذلك، قال: لقد قلت قولاً عجيباً وما هو كذلك، ولكنه إنما يقول: ذكر الله إياكم عندما أمر به أو نهى عنه إذا ذكرتموه أكبر من ذكركم إياه، وقد روي هذا من غير وجه عن ابن عباس، واختاره ابن جرير.

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا مَآءًا بِالَّذِي أَنزَلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَجِدْ وَنَحْنُ لَمْ مُسْلِمُونَ﴾^(٤٦) .

قال قتادة وغير واحد: هذه الآية منسوخة بآية السيف، ولم يبق معهم مجادلة، وإنما هو الإسلام أو الجزية أو السيف، وقال آخرون: بل هي باقية محكمة لمن أراد الاستبصار منهم في الدين، فيجادل بالتي هي أحسن، ليكون أنجع فيه، كما قال تعالى: «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة» الآية. وهذا

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم ورواه الطبراني بنحوه.

(٣) أخرجه البزار والإمام أحمد في «مسنده».

(٤) وهو قول مجاهد وبه قال غير واحد من السلف.

القول اختاره ابن جرير، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ أي حادوا عن وجه الحق، وعموا عن واضح المحجة، وعاندوا وكابروا، فحيثئذ يتقل من الجدال إلى الجلال، ويقاثلون بما يمنعهم ويردعهم، قال جابر: أمرنا من خالف كتاب الله أن نضربه بالسيف، قال مجاهد: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ يعني أهل الحرب ومن امتنع منهم من أداء الجزية، وقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمْ﴾ يعني إذا أخبروا بما لا نعلم صدقه ولا كذبه فهذا لا نقدم على تكذيبه لأنه قد يكون حقاً ولا تصديقه فلعله أن يكون باطلاً، ولكن نؤمن به إيماناً مجملًا، أخرج البخاري رحمه الله عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: ﴿لَا تَصَدَّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تَكْذِبُوهُمْ﴾ ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمْ﴾ وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون. وروى ابن جرير عن (عبد الله بن مسعود) قال: لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء، فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا، إما أن تكذبوا بحق أو تصدقوا بباطل، فإنه ليس أحد من أهل الكتاب إلا وفي قلبه تالية تدعوه إلى دينه كتالية المال، وروى البخاري عن ابن عباس قال: كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أنزل إليكم على رسول الله ﷺ أحدث، تقرأونه محضاً لم يشب، وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا وغيروا وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا: هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً؟ ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم؟ لا والله ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذي أنزل عليكم. وحدث معاوية رهطاً من قريش بالمدينة وذكر كعب الأحبار، فقال: إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب، وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب^(١).

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَلْفَبُورٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْمَكْفُورُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَنفَلُونَ مِنْ قَبْلِهِ. بَيْنَ كِتَابٍ وَلَا تَنْفَلُ بِمِثْلِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطَلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَبْسُتُ فِي سُدُورِ الَّذِينَ أُرْتُوا أَلْفَبُورٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْقَلِيلُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

يقول الله تعالى كما أنزلنا الكتب على من قبلك يا محمد من الرسل، كذلك أنزلنا إليك هذا الكتاب، وقوله تعالى: ﴿فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به﴾ أي الذين أخذوه فتلوه حق تلاوته، من أحبارهم العلماء الأذكياء كـ (عبد الله بن سلام) و(سلمان الفارسي) وأشباهما، وقوله تعالى: ﴿ومن هؤلاء من يؤمن به﴾ يعني العرب من قريش وغيرهم، ﴿وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون﴾ أي ما يكذب بها ويجحد حقها إلا من يستر الحق بالباطل، ثم قال تعالى: ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك﴾ أي قد لبثت في قومك يا محمد من قبل أن تأتي بهذا القرآن عمراً لا تقرأ كتاباً ولا تحسن الكتابة، بل كل أحد من قومك وغيرهم يعرف أنك رجل أمي لا تقرأ ولا تكتب، وهكذا صفة في الكتب المتقدمة، كما قال تعالى: ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر﴾ الآية، وهكذا كان رسول الله ﷺ دائماً إلى يوم الدين لا يحسن الكتابة ولا يخط سطرًا ولا حرفاً بيده، بل كان له كتاب يكتبون بين يده الوحي والرسائل إلى الأقاليم، وما أورده بعضهم من الحديث أنه لم يمت ﷺ حتى تعلم الكتابة فضعيف لا أصل له، قال الله تعالى: ﴿وما كنت تتلو﴾ أي تقرأ ﴿من قبله من كتاب﴾ لتأكيد النفي ﴿ولا تخطه بيمينك﴾ تأكيد أيضاً وخرج مخرج الغالب، كقوله تعالى: ﴿ولا طائر يطير بجناحيه﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطَلُونَ﴾ أي لو كنت تحسنها لارتاب بعض الجهلة من الناس، فيقول:

(١) أخرجه البخاري موقوفاً على معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه قال ابن كثير: معناه أنه يقع منه الكذب من غير قصد، لأنه يحدث عن صحف وهو يحسن الظن فيها وفيها أشياء موضوعة ومكذوبة.

إنما تعلم هذا من كتب قبله مأثورة عن الأنبياء، وقد قالوا ذلك مع علمهم بأنه أمي لا يحسن الكتابة، ﴿وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً﴾، قال الله تعالى: ﴿قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض﴾ الآية، وقال ههنا ﴿بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم﴾ أي هذا القرآن آيات بيّنة واضحة في الدلالة على الحق، يحفظه العلماء، يسره الله عليهم حفظاً وتلاوة وتفسيراً، كما قال تعالى: ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ وقال رسول الله ﷺ: «ما من نبي إلا وقد أعطي ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً»، وفي «صحيح مسلم» يقول الله تعالى: «إني مبتليكم ومبتل بك، ومنزل عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرؤه نائماً ويقظاناً»، أي لأنه محفوظ في الصدور، ميسر على الألسنة، مهيم على القلوب، معجز لفظاً ومعنى، ولهذا جاء في الكتب المتقدمة في صفة هذه الأمة «أناجيلهم في صدورهم»، وقوله تعالى: ﴿وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون﴾ أي ما يكذب بها ويبخس حقها ويردها ﴿إلا الظالمون﴾ أي المعتدون المكابرون الذين يعلمون الحق ويحيدون عنه، كما قال تعالى: ﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم﴾.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٥﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةٌ وَذِكْرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٦﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا بِمَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في تعنتهم، وطلبهم آيات يعنون ترشدهم إلى أن محمداً رسول الله، كما أتى صالح بناقته، قال الله تعالى: ﴿قل﴾ يا محمد ﴿إنما الآيات عند الله﴾ أي إنما أمر ذلك إلى الله، فإنه لو علم أنكم تهتدون لأجابكم إلى سؤالكم، لأن هذا سهل عليه يسير لديه، ولكنه يعلم منكم أنكم إنما قصدتم التعنت والامتحان، فلا يجيبكم إلى ذلك، كما قال تعالى: ﴿وما معنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها﴾، وقوله: ﴿وإنما أنا نذير مبين﴾ أي إنما بعثت نذيراً لكم فعلي أن أبلغكم رسالة الله تعالى، و﴿من يهد الله فهو المهتد﴾، ثم قال تعالى مبيناً كثرة جهلهم وسخافة عقولهم، حيث طلبوا آيات تدلهم على صدق محمد ﷺ فيما جاءهم، وقد جاءهم بالكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، الذي هو أعظم من كل معجزة، إذ عجزت الفصحاه والبلغاء عن معارضته، بل عن معارضة سورة منه، فقال تعالى: ﴿أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم﴾^(١) أي أو لم يكفهم آية أنا أنزلنا عليك الكتاب العظيم الذي فيه خير ما قبلهم ونبأ ما بعدهم وحكم ما بينهم، وأنت رجل أمي لا تقرا ولا تكتب ولم تخالط أحداً من أهل الكتاب، فجتنتهم بأخبار ما في الصحف الأولى ببيان الصواب مما اختلفوا فيه، وبالحق الواضح البين الجلي، كما قال تعالى: ﴿أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل﴾، وقال تعالى: ﴿وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه أو لم تأتهم بيّنة ما في الصحف الأولى﴾ وفي الصحيح عنه ﷺ: «ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»^(٢). وقد قال الله تعالى: ﴿إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون﴾ أي إن في هذا القرآن ﴿لرحمة﴾ أي بياناً للحق وإزاحة للباطل ﴿وذكرى﴾ بما فيه حلول النقمات ونزول العقاب بالمكذبين والعاصين ﴿لقوم يؤمنون﴾، ثم قال تعالى: ﴿قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً﴾ أي هو أعلم بما تفيضون فيه من التكذيب، ويعلم ما أقول لكم من إخباري عنه بأنه أرسلني،

(١) أخرج ابن جرير وغيره قال: جاء أناس من المسلمين يكتبوا فيها بعض ما سمعوه من اليهود، فقال النبي ﷺ: «كفى بقوم ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم، إلى ما جاء به غيره» فنزلت ﴿أولم يكفهم...﴾.

(٢) أخرجه الشيخان والإمام أحمد.

فلو كنت كاذباً عليه لانتقم مني، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾، وإنما أنا صادق عليه فيما أخبرتكم به، ولهذا أيدني بالمعجزات الواضحات والدلائل القاطعات ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي لا تخفى عليه خافية، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي يوم القيامة سيجزيهم على ما فعلوا ويقابلهم على ما صنعوا، في تكذيبهم بالحق واتباعهم الباطل، كذبوا برسول الله مع قيام الأدلة على صدقهم، وآمنوا بالطواغيت والأوثان بلا دليل، فسيجزيهم على ذلك إنه حكيم عليم.

﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلِيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٧﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا جَهَنَّمُ لَخِيطَةُ الْكَافِرِينَ ﴿٥٨﴾ يَوْمَ يَشْتَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَنْتَحِبُ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً عن جهل المشركين، في استعجالهم عذاب الله أن يقع بهم، وبأس الله أن يحل عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَاباً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْنَا بِعَذَابِ الْيَمِّ﴾، وقال هنا: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ أي لولا ما حتم الله من تأخير العذاب إلى يوم القيامة لجاءهم العذاب قريباً سريعاً كما استعجلوه، ثم قال: ﴿وَلِيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً﴾ أي فجأة، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين أي يستعجلون العذاب وهو واقع بهم لا محالة، ثم قال عز وجل: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمَنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾، كقوله تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمَنْ فَوْقَهُمْ غَوَاشٍ﴾، وقال تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ وَمَنْ تَحْتَهُمْ ظُلَلٌ﴾، فالنار تغشاهم من سائر جهاتهم وهذا أبلغ في العذاب الحسي، وقوله تعالى: ﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تهديد وتقريع وتوبيخ وهذا عذاب معنوي على النفوس، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ * إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعْواً * هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تَكْفُرُونَ﴾.

﴿يَبَايِعُ الَّذِينَ آمَنُوا إِذْ أَرْضِي رَيْبَةً فَإِنِّي فَأَعْبُدُونَ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ لِيُنَّا تَرْجِعُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِنَّا كَافِرُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين، بالهجرة من البلد الذي لا يقدر فيه على إقامة الدين، إلى أرض الله الواسعة، حيث يمكن إقامة الدين، بأن يوحدهوا الله ويعبدوه كما أمرهم، ولهذا قال تعالى: ﴿يَا عِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَيُبَايِعُوا فَأَعْبُدُونَ﴾. عن الزبير بن العوام قال، قال رسول الله ﷺ: «البلاد بلاد الله، والعباد عباد الله، فحيثما أصبت خيراً فأقم»^(١)، ولهذا لما ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم بها، خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة ليؤمنوا على دينهم هناك، فوجدوا خير المنزلين هناك (أصحابه النجاشي) ملك الحبشة رحمه الله تعالى، فأواهم وأيدهم، ثم بعد ذلك هاجر رسول الله ﷺ والصحابه الباقون إلى المدينة المطهرة، ثم قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ لِيُنَّا تَرْجِعُونَ﴾ أي أينما كنتم يدرركم الموت، فكونوا في طاعة الله وحيث أمركم الله فهو خير لكم، فإن الموت لا بد منه ولا محيد عنه، ثم إلى الله المرجع والمآب، فمن كان مطيعاً له جازاه أفضل الجزاء ووفاه أتم الثواب، ولهذا قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي لنسكنهم منازل عالية في الجنة، تجري من تحتها الأنهار على اختلاف أصنافها، من ماء وخمر وعسل ولبن، يصرفونها ويجرونها حيث شاءوا، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي ماكثين فيها أبداً لا يبعثون عنها حولاً، ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ نعمت هذه

(١) أخرجه الإمام أحمد عن الزبير بن العوام.

الغرف أجرأ على أعمال المؤمنين ﴿الذين صبروا﴾ أي على دينهم وهاجروا إلى الله، وناذبوا الأعداء، وفارقوا الأهل والأقرباء، ابتغاء وجه الله ورجاء ما عنده.

وفي الحديث: «إن في الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، أعدها الله تعالى لمن أطعم الطعام، وأطاب الكلام، وتابع الصلاة والصيام، وقام بالليل والناس نيام»^(١) ﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾ في أحوالهم كلها في دينهم ودنياهم. ثم أخبرهم تعالى أن الرزق لا يختص ببقعة، بل رزقه تعالى عام لخلقه حيث كانوا وأين كانوا، بل كانت أرزاق المهاجرين حيث هاجروا أكثر وأوسع وأطيب، فإنهم بعد قليل صاروا حكام البلاد في سائر الأقطار والأمصار، ولهذا قال تعالى: ﴿وكأين من دابة لا تحمل رزقها﴾ أي لا تطيق جمعه وتحصيله ولا تدخر شيئاً لغد، ﴿الله يرزقها وإياكم﴾ أي الله يقبض لها رزقها على ضعفها ويسره عليها، فيبعث إلى كل مخلوق من الرزق ما يصلحه حتى الذر في قرار الأرض، والطير في الهواء، والحيتان في الماء، قال تعالى: ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين﴾، وروى ابن أبي حاتم عن ابن عمر قال: خرجت مع رسول الله ﷺ حتى دخل بعض حيطان المدينة، فجعل يلتقط من التمر ويأكل، فقال لي: «يا ابن عمر مالك لا تأكل؟» قال: قلت: لا أشتهي يا رسول الله، قال: «لكنني أشتهي وهذا صبح رابعة منذ لم أذق طعاماً، ولم أجده، ولو شئت لدعوت ربي فأعطاني مثل ملك كسرى وقیصر، فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت في قوم يخبثون رزق ستهتم بضعف البقين؟» قال فوالله ما برحنا ولا رما حتى نزلت: ﴿وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم﴾، فقال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل لم يأمرني بكنز الدنيا، ولا باتباع الشهوات، فمن كنز دنياه يريد بها حياة باقية، فإن الحياة بيد الله، ألا واني لا أكنز ديناراً ولا درهماً ولا أخبأ رزقاً لغد»^(٢)، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «سافروا ترحبوا، وصوموا تصحوا، واغزوا تغنموا»^(٣). وقوله: ﴿وهو السميع العليم﴾ أي السميع لأقوال عباده ﴿العليم﴾ بحركاتهم وسكناتهم.

﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ ﴿١١﴾ ﴿اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿١٢﴾ ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ﴿١٣﴾ ﴿

يقول تعالى مقررأ أنه لا إله إلا هو، لأن المشركين الذين يعبدون معه غيره معترفون بأنه المستقل بخلق السماوات والأرض، والشمس والقمر، وتسخير الليل والنهار، وأنه الخالق الرازق لعباده، ومقدر آجالهم وأرزاقهم فتفاوت بينهم، فمنهم الغني والفقير، وهو العليم بما يصلح كلاً منهم ومن يستحق الغنى ممن يستحق الفقر، فذكر أنه المستقل بخلق الأشياء المتفرد بتدبيرها، فإذا كان الأمر كذلك فلم يعبد غيره؟ ولم يتوكل على غيره؟ فكما أنه الواحد في ملكه، فليكن الواحد في عبادته، وكثيراً ما يقرر تعالى «مقام الإلهية» بالاعتراف بتوحيد الربوبية، وقد كان المشركون يعترفون بذلك، كما كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك.

﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَلَّهٖ لَمَلَبٌ وَّلِيكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ لَئِمَّ الْحَيَوةُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٤﴾ ﴿إِنَّا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعْوَا اللَّهِ عَظِيمًا لَمَّا بَعَثْنَا لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا جَعَلْنَاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِنْ أَلْبَسْنَا لَهُمْ كِسْفًا مِمَّا عَاتَبْنَاهُمْ وَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿١٥﴾ ﴿

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي مالك الأشعري مرفوعاً.

(٢) الحديث أخرجه ابن أبي حاتم وفي إسناده ضعف كذا قال ابن كثير.

(٣) أخرجه الإمام أحمد، ورواه البيهقي عن ابن عمر مرفوعاً بلفظ (سافروا تصحوا وتغنموا).

يقول تعالى مخبراً عن حقارة الدنيا وزوالها وانقضائها، وأنها لا دوام لها وغاية ما فيها لهو ولعب ﴿وإن الدار الآخرة لهي الحيوان﴾ أي الحياة الدائمة، الحق الذي لا زوال له ولا انقضاء، بل هي مستمرة أبد الآباد، وقوله تعالى: ﴿لو كانوا يعلمون﴾ أي لأنثروا ما يبقى على ما يفنى. ثم أخبر تعالى عن المشركين أنهم عند الاضطرار يدعونه وحده لا شريك له، فلا يكون هذا منهم دائماً ﴿فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين﴾، كقوله تعالى: ﴿وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أمرضتم﴾ الآية. وقال ههنا: ﴿فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون﴾. وقد ذكر محمد بن إسحاق عن (عكرمة بن أبي جهل) أنه لما فتح رسول الله ﷺ مكة، ذهب فأراً منها، فلما ركب في البحر ليذهب إلى الحبشة اضطربت بهم السفينة، فقال أهلها: يا قوم أخلصوا لربكم الدعاء، فإنه لا ينجي ههنا إلا هو، فقال عكرمة: والله لئن كان لا ينجي في البحر غيره فإنه لا ينجي في البر أيضاً غيره، اللهم لك عهد لئن خرجت لأذهبن فلاضعن يدي في يد محمد، فلاجدنه رؤوفاً رحيماً، فكان كذلك. وقوله تعالى: ﴿ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا﴾ هذه اللام (لام العاقبة) لأنهم لا يقصدون ذلك ولا شك أنها كذلك بالنسبة إليهم، وأما بالنسبة إلى تقدير الله عليهم ذلك، وتقيضه إياهم لذلك فهي لام التعليل، وقد قدمنا تقرير ذلك في قوله: ﴿ليكون لهم عدواً وحزناً﴾.

﴿أولم يروا أننا جمنا حرمنا ما بيننا ونحطفت الناس من حولهم أفيالباطل يؤمنون وينصون الله يكفرون﴾ (١٧) ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بالحق لما جاءه أليس في جهنم مثوى للكافرين﴾ (١٨) ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين﴾ (١٩).

يقول تعالى ممتناً على قريش فيما أحلهم من حرمه الذي جعله للناس سواء العاكف فيه والباد، ومن دخله كان آمناً، فهو أمن عظيم، والأعراب حوله ينهب بعضهم بعضاً ويقتل بعضهم بعضاً، كما قال تعالى: ﴿لإيلاف قريش﴾ إلى آخر السورة، وقوله تعالى: ﴿أفيالباطل يؤمنون وينصون الله يكفرون﴾ (١٧) أي أفكان شكرهم على هذه النعمة العظيمة أن أشركوا به وعبدوا معه غيره من الأصنام والأنداد، ﴿بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار﴾ فكفروا بنبي الله ورسوله فكذبوه، فقاتلوه، فأخرجوه من بين أظهرهم، ولهذا سلبهم الله تعالى ما كان أنعم به عليهم، وقتل من قتل منهم بيد، ثم صارت الدولة لله ورسوله وللمؤمنين، ففتح الله على رسوله مكة وأرغم آتافهم وأذل رقابهم، ثم قال تعالى: ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بالحق لما جاءه؟﴾ أي لا أحد أشد عقوبة ممن كذب على الله، فقال إن الله أوحى إليه ولم يوح إليه شيء، وهكذا لا أحد أشد عقوبة ممن كذب بالحق لما جاءه، فالأول مفتر والثاني مكذب، ولهذا قال تعالى: ﴿ليس في جهنم مثوى للكافرين﴾. ثم قال تعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا﴾ يعني الرسول ﷺ وأصحابه واتباعه إلى يوم الدين ﴿لنهديهم سبلنا﴾ أي لنبصرنهم سبلنا أي طرقنا في الدنيا والآخرة، وقوله: ﴿وإن الله لمع المحسنين﴾.

روى ابن أبي حاتم بسنده عن الشعبي قال: قال عيسى ابن مريم عليه السلام: إنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك، ليس الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك، والله أعلم.

[آخر تفسير سورة العنكبوت، والله الحمد والمنة]

(١) في «اللباب»: أخرج جوير: أنهم قالوا: يا محمد، ما بمنعنا أن ندخل في دينك إلا مخافة أن يتخططنا الناس، والأعراب أكثر منا، فنزل: ﴿أولم يروا أننا...﴾ الآية.